الفصل الأول

القــرآن الكريــم

obeikan.com

obeikan.com

القرآن الكريم

أولاً: هل القرآن وحى إلهى أم تأليف بشرى؟

١- القرآن الكريم هو كتاب الإسلام الأول الذى تقوم على أساسه عقائد الدين الإسلامى وشريعته، وتنبثق منه أخلاق الإسلام وآدابه. فإذا ثبت أنه وحى الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإن الإيمان به يصبح أمرًا لا مفر منه.

ومن أجل ذلك اتجهت جهود المناهضين للإسلام قديمًا وحديثًا إلى محاولة زعزعة الاعتقاد فى صحة القرآن وفى مصدره. وقد بذل الوثنيون المكيون جهدهم فى مقاومة الحقيقة المتمثلة فى أن القرآن وحى من عند الله. فزعموا أنه ﴿إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، وأنه ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان: ٥]، وأن محمدًا: ﴿يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] أو أن القرآن قول ساحر أو كاهن. وكانوا يهدفون من وراء ذلك كله إلى إبطال القول بأنه وحى السماء إلى محمد ﷺ لهداية البشر.

وقد حذا عدد من المستشرقين المتحاملين على الإسلام فى موقفهم من القرآن حذو مشركى مكة، وبذلوا محاولات مستميتة لبيان أن القرآن ليس

وحيًا من عند الله، وإنما هو من تأليف محمد ﷺ ورددوا أحيانًا الاعتراضات التى قال بها الوثنيون قديمًا على الرغم من دحض القرآن لها.

ومن الثابت تاريخيًا أن محمدًا كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ولذلك عين عددًا من أصحابه لكتابة ما ينزل عليه من وحى قرآنى. ولو كان يستطيع القراءة والكتابة لما كان فى حاجة إلى الاستعانة بأحد لكتابة آيات القرآن. فكيف يستطيع أمى أن يطلع على كتب الديانات الأخرى؟ وكيف ومتى حدث ذلك؟ إن هذه مجرد دعاوى لا يقوم عليها دليل، ولا سند لها من الواقع.

٢ـ لقد ظل النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدعو إلى الإسلام فى مكة حوالى ثلاثة عشر عامًا. ولم يثبت تاريخيًا أنه كانت له صلات باليهود على الإطلاق. أما صلاته بالمسيحية فإن القائلين بذلك يضخمون فى هذا الصدد قصة لقائه براهب مسيحى يدعى «بحيرى» فى طريق القوافل إلى الشام عندما كان محمد فى صحبة عمه أبى طالب فى تجارته إلى الشام، وكان عمره حينذاك تسع سنوات أو اثنتى عشرة سنة. فكيف لصبى صغير أن يستوعب ديانة بكاملها فى لقاء عابر لم يستمر إلا لدقائق؟ وما الذى يدفع بحيرى لاختيار هذا الصبى الصغير بالذات من بين كل القافلة لتعليمه الدين المسيحى؟ ولماذا انتظر محمد ثلاثين عامًا بعد هذا اللقاء لإعلان دعوته؟

إن هذه قصة غير معقولة ولا مقبولة. وهذا ما دعا أحد المستشرقين لرفضها تمامًا بوصفها قصة مختلقة من أساسها. فقد قال المستشرق هوارت

(Huart) «لا تسمح النصوص العربية التى عثر عليها ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بأن نرى فى الدور المسند إلى هذا الراهب السورى إلا مجرد قصة من نسج الخيال»[1].

٣ـ القرآن الكريم يتفق مع كل الديانات السماوية السابقة فى الإيمان بإله واحد خالق للكون، وأن مردَّ الجميع إليه. ويرجع هذا الاتفاق إلى أن مصدر هذه الديانات جميعًا واحد وهو الله، فلا يجوز أن يكون بينها تناقض فى أصول الاعتقاد. ولكن القرآن الكريم قد عارض كثيرًا من المعتقدات الأخرى السائدة لدى أصحاب الديانتين اليهودية والمسيحية. فكيف يقال إذن إن محمدًا استعان بمصادر مسيحية ويهودية؟ ألم يكن من الأولى- إذا صح ذلك- ألا يكون هناك أى اختلاف، أو على الأقل يكون اختلافًا هامشيًا وليس متصلاً بمعتقدات أساسية؟.

٤ـ لقد اشتمل القرآن على حقائق علمية لم يعرفها العلم إلا فى العصر الحديث[2]، وعلى سبيل المثال ما أشار إليه القرآن من مراحل تطور الجنين فى بطن أمه، وحقائق أخرى حول الأرض والشمس والكواكب والرياح والأمطار.. إلخ. فمن أين أتى محمد بذلك؟ لا يستطيع أحد أن يقول إنه قد استعان فى ذلك بمصادر مسيحية أو يهودية؛ لأنها لا تشتمل على شىء

(١) راجع: مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٣٤ هامش ١ ـ دار القلم بالكويت ١٩٧١م (وهذا الكتاب أحد رسالتين علميتين قدمهما المؤلف بالفرنسية إلى جامعة باريس عام ١٩٤٧م).

(٢) راجع: موريس بوكاى: القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ـ دار المعارف ١٩٧٨م.

من ذلك . فهل يعقل أنه أتى بها من عند نفسه، وهو الأمى الذى لم يحصل على أى قدر من التعليم؟

إن كل الشواهد تدل على أنه وحى إلهى وأن مصدر القرآن لا يمكن أن يكون مصدراً بشريًا .

ثانيًا: هل كان القرآن تلفيقًا من الديانات السابقة؟

١ـ لو كان القرآن بالفعل ملفقًا من الكتب الدينية السابقة فهل كان معاصرو محمد ومعارضوه من كل الاتجاهات سيسكتون عن ذلك؟ لقد كانوا يتصيدون له التهم . فكيف غاب عنهم ذلك ولم يكشفوا عنه؟ إن كل ما استطاع المعارضون أن يدعوه لم يخرج عن إطار التعميمات التى لا تستند إلى أى أساس علمى . وقد أشار القرآن الكريم نفسه إلى هذه الدعاوى الباطلة- كما سبق أن أوردنا ذلك فى الرد على الشبهة السابقة .

٢ـ لقد اشتمل القرآن الكريم على الكثير من التشريعات والتعاليم التى لا وجود لها فى كتب الديانات السابقة، فضلاً عن إحاطته بتفصيلات لأخبار الأمم السابقة، واشتماله على أمور غيبية تحققت بالفعل كما أخبر بذلك القرآن، مثل مصير الصراع بين الروم والفرس . وهذه كلها أمور لم يكن يعرفها محمد ولا قومه ولا أصحاب الديانات السابقة .

٣ـ لقد دعا القرآن الكريم إلى العلم واحترام العقل واستخدامه . وعلى أساس من تعاليمه الجديدة استطاع المسلمون فى فترة زمنية قصيرة نسبيًا أن يبنوا حضارة حلت محل الحضارات السابقة عليها واستمرت قرونًا

عديدة. فإذا كان القرآن قد أخذ من الديانات السابقة، فلماذا لم تشتمل هذه الديانات على هذه التعاليم وتقوم بنفس الدور الذى قام به الإسلام؟

٤ ـ القرآن الكريم كله كتاب متسق فى نظمه وأسلوبه وتعاليمه، فلو كان ملفقًا من كتب سابقة لكان متناقضًا ومفككًا وغير محكم، نظرًا لاختلاف المصادر. وفضلاً عن ذلك فالقرآن الكريم يخاطب العقل دائمًا، ويخلو من الأساطير والخرافات، ويعتمد الدليل والبرهان، ويطالب خصومه بذلك قائلاً: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، [الأنبياء: ٢٤]، [النمل: ٦٤]، [القصص: ٧٥].

وهذا النهج يعد نهجًا جديدًا غير مسبوق، وبالتالى فإنه لا يمكن أن يكون مستعارًا من ديانات سابقة.

٥ ـ أما بالنسبة للثقافة الجاهلية ـ التى قيل أيضًا إن القرآن قد اعتمد عليها ـ فإن الثابت أن الإسلام قد رفض عقائد الجاهلية الباطلة وعاداتها السيئة وتقاليدها البالية، وأحل محلها عقائد صحيحة وعادات حسنة وتقاليد مقبولة، فما الثقافة الجاهلية إذن التى أخذها الإسلام من الجاهلية؟

ثالثًا: هل صحيح أن القرآن الكريم لم يأت بجديد؟

بالإضافة إلى ما سبق فى الرد على الدعوى السابقة يمكن الإشارة إلى ما يأتى:

١ ـ لقد اشتمل القرآن على أخبار لم يكن يعرفها أهل الكتاب. فقد ذكر القرآن مثلاً بالتفصيل قصة زكريا وولادة مريم وكفالته لها. وأورد الكثير عن

مريم وخصص لها سورة بكاملها فى القرآن الكريم مما ليس له نظير فى العهد الجديد. فمن أين استقى محمد هذه المعلومات إذن؟.

٢ ـ جاء فى سفر الخروج أن ابنة فرعون هى التى تبنت موسى فى حين قرر القرآن أن امرأة فرعون هى التى تبنته. وفى هذا السفر أيضًا نسبة صنع العجل الذى عبده بنو إسرائيل إلى هارون فى حين نسب القرآن ذلك إلى السامرى وذكر إنكار هارون ذلك عليهم.

٣ ـ إذا كان القرآن قد اقتبس من الإنجيل فلماذا لم يأخذ بنظرية التثليث المسيحية التى تعد الأساس الراسخ فى العقيدة المسيحية؟ ولماذا لم يأخذ بعقيدة الصلب والفداء والخطيئة الموروثة وألوهية المسيح؟[1].

٤ ـ لقد جعل القرآن الكريم من أنبياء الله نماذج أخلاقية عليا، بينما ينسب العهد القديم إلى بعضهم ارتكاب الفواحش، وهذا لا يتفق مع مكانة الأنبياء فى التصور الإسلامى. (راجع مثلاً قصة سيدنا لوط مع ابنتيه فى العهد القديم).

٥ ـ العبادات فى الإسلام والتى جاء بها القرآن من صلاة وصيام وزكاة وحج، وتفاصيل هذه الشعائر وطريقة أدائها من الأمور التى لا نظير لها فى الديانات السابقة. فالصلوات الخمس التى تؤدى بطريقة مخصوصة وفى أوقات معينة وبصيغ محددة، والصيام فى شهر رمضان من كل عام

---

(١) راجع كتابنا: الإسلام فى مرآة الفكر الغربى ـ ص٧٦، ٧٧، ٨٥ ـ دار الفكر العربى ١٩٩٤م.

بالامتناع التام عن الطعام والشراب وجميع الشهوات من الفجر إلى غروب الشمس، والزكاة وطريقة أدائها ومصارفها وأنواع الزكاة، والحج وما يشتمل عليه من طواف ووقوف بعرفة وسعى بين الصفا والمروة ورمى للجمار.. إلخ، أمور لا يشتمل عليها أى دين بالكيفية التى أتى بها الإسلام، وإذا كانت مقتبسة من أى دين فأين هو هذا الدين الذى جاء بمثل ذلك؟!

رابعًا: هل شاب جمع القرآن ما يشكك فى صحة النص القرآنى؟

١ـ لقد كان هناك كتَّاب معروفون اختارهم النبى ﷺ من بين صحابته يكتبون ما يمليه عليهم من الوحى القرآنى فور نزوله. وكانوا يكتبون على أى شىء يجدونه ميسوراً لهم مثل الورق أو الخشب أو قطع الجلد أو صفائح الحجارة أو العظام. وعدد كتَّاب الوحى ـ كما جاء فى المصادر الإسلامية ـ تسعة وعشرون كاتبًا، أشهرهم الخلفاء الراشدون الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ، ومعهم معاوية والزبير بن العوام وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص وأبى بن كعب وزيد بن ثابت.

٢ ـ وبالإضافة إلى تدوين الوحى كان هناك طريق آخر موازٍ للتدوين هو حفظ القرآن عن ظهر قلب. وقد استمرت هذه العادة حتى يومنا هذا، وقد بلغ عدد «حفظة القرآن» فى حياة الرسول مئات من الصحابة ممن تخصصوا فى تلاوة القرآن وفى حفظه عن ظهر قلب، وقد أخبر الرسول أنه كان يقوم بمراجعة عامة للقرآن فى حضور جبريل -عليه السلام- فى شهر رمضان من كل عام، وأنه فى العام الأخير راجع عليه جبريل القرآن مرتين. وبذلك

أخذ القرآن شكله النهائى فى صدور الحفاظ قرب نهاية حياة الرسول، كما أن الكتّاب كانوا يضعون كل آية فى موضعها بتوجيهات من النبى ﷺ.

٣ ـ بعد وفاة الرسول بعام قُتل سبعون من حفظة القرآن فى معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب. وعلى أثر ذلك عهد الخليفة أبو بكر ـ بناء على اقتراح من عمر بن الخطاب ـ إلى زيد بن ثابت ـ وهو أحد كتّاب الوحى ـ بمهمة جمع وثائق القرآن المختلفة فى مجموعة مدونة سهلة الاستعمال. وتم وضع قاعدة للعمل، على أساسها لم يكن يعتمد أى مخطوط إلا إذا شهد شخصان على أنه مكتوب بإملاء الرسول. وبطبيعة الحال تم الاستعانة بحفظة القرآن من الصحابة. وبعد أن انتهى زيد من مهمته سلم النسخة الكاملة إلى أبى بكر الذى عهد بها قبل موته إلى عمر بن الخطاب، وسلمها عمر قبل موته إلى ابنته حفصة أم المؤمنين.

٤ ـ فى خلافة عثمان بن عفان شكل لجنة من أربعة نساخ منهم زيد بن ثابت نفسه. وقامت اللجنة بنسخ خمس نسخ من القرآن أرسلت إلى مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق. وقد اعتمدت اللجنة فى عملها على النسخة التى كانت محفوظة لدى السيدة حفصة أم المؤمنين، وراجعت اللجنة عملها على ما يحفظه الحفاظ من القرآن الكريم منذ عهد النبى ﷺ. وهذا هو المصحف المتداول الآن فى كل مكان فى العالم الإسلامى لدى جميع الفرق الإسلامية. ولم يختلف عليه أحد من المسلمين حتى الآن بعد مرور أربعة عشر قرنًا من الزمان. وقد أكد هذه الحقيقة عدد من المستشرقين منهم لوبلوا (Leblois) ومويـر (Muir) والمستشرق الألمانى المعاصر رودى

بارت(Rudi Paret) الذى يقول فى مقدمة ترجمته للقرآن: «ليس لدينا أى سبب يحملنا على الاعتقاد بأن هناك أى آية فى القرآن كله لم ترد عن محمد». ويريد بذلك أن يقول بأنه لا مجال للقول بأن أحداً بعد محمد تدخل فى نص القرآن بالحذف أو الإضافة.. إلخ[1].

لم يثبت أنه كانت هناك نسخ مخالفة للنسخة التى تم نسخها فى خلافة عثمان بن عفان. ولو كان لدى بعض الصحابة نسخ أخرى لأظهروها وعارضوا بها النسخة المعتمدة. وهذا أمر لم يحدث على مدى تاريخ المسلمين. وحتى بعض الفرق التى يعتبرها المسلمون منشقة عن الإسلام مثل الأحمدية المعاصرة نجدها تحتفظ بالنص القرآنى نفسه المعروف لدى بقية المسلمين دون زيادة أو نقصان.

٥ ـ أما ما أشيع عن عبد الله بن مسعود ـ وهو صحابى جليل ـ أنه كان يرى أن سورة الفاتحة والمعوذتين ليست من القرآن، فإنه لم يثبت إطلاقًا أنه قال بذلك. وقد أجمع علماء المسلمين الثقات على تبرئة ابن مسعود من هذا الزعم الباطل. ومن بين من قام بالرد على هذا الادّعاء وتفنيده كلٌ من: الإمام فخر الدين الرازى، والقاضى أبى بكر، والإمام النووى، والإمام ابن حزم، والإمام الباقلانى وغيرهم. ولم يذكر لنا التاريخ أن أحداً من المسلمين قد تبنى هذا الرأى الباطل المنسوب كذبًا إلى ابن مسعود[2].

---

(١) يراجع فى ذلك: مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز، ص ٣٤ وما بعدها، راجع أيضًا:

Rudi Paret:Der Koran. Übersetzung. Stuttgart 1980,P.5.

(٢) راجع كتابنا: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى. ص٩٧ وما بعدها ـ دار المعارف ـ ١٩٩٧م.